مقامات في الحب والحرب.. ترجمة لمجريات حقيقة

أنور الرحبي: المقامات تبدأ من بناء شكلي مسبق في الذاكرة وعليها تبين أن لا حياة بلا حب

جحجاح: الحب يمتد من دمشق إلى اللاذقية ونهر الفرات في دير الزور على ضفاف ممتلئة باللون والشغف

غنوم: المعرض يحقق نقلة نوعية وخاصة مع هذا العنوان الذي يحمل نوعاً من التضاد بين الحرب والحب

سارة سلامة

تعمل صالة «ألف نون» عبر منظومتها إلى استضافة التجارب الغنية وها هي تجربة الفنان أنور الرحبي التي تمتد إلى أكثر من ٤٠ عاماً، تشكل اليوم نقلة نوعية تعبر عن حالة من العشق الصوفي المعتق بأثقال حرب مريرة من خلال المزاوجة بين الألوان الحارة والباردة، وجمع التضاد بين حرب وحب وتأثير كل ذلك ليكون عند كل مقام ليس مقالاً بل صورة وتعبير وحالة ورموز من أسرة ونافذة وعمارة تحمل في دقتها الكثير من التفاصيل ومع كل ذلك تبرز المرأة بمختلف تفاصيلها من خلال لوحته تعبر عن حالة بطولية تعيشها هنا، والمعرض الذي ضم ٢٥ لوحة تشكيلية حافظ فيه الفنان الرحبي على تميز صوته التشكيلي الذي يحمل نكهة خاصة لبقائه ضمن بوتقة الذات الصوفية والشعرية اللونية والموضوعية التي تحمل ما في دواخلنا من مشاعر وأحاسيس، وفي أعماله روح المقام، مقام الأسرة اليومية، ومقام الزمن الصعب من الشارع المشغول بتعبه اليومي وبأعماله حبق الغياب من مقام الذكريات، والأنسنة المشغولة بالطوق الحياتي من جهتي العشق والسكون، يقدم الفنان مقامه الغافي على الأضرحة التي تطل من نوافذ النفحات.

ويلبس الرحبي أشكاله بألوان مختلفة تتجاور لمصلحة استحضار اللهجة الفراتية التي تشكل شتاء ألوانها، إنها قصائد ملونة لمقامات الحب والحرب والحياة وفي داخلها هوى الوديان ولغة الشمس والموليا، إنه عاشق الاكتشاف وامتلاك حقيقة المقام.

لا حياة من دون حب

وقال الفنان أنور الرحبي في تصريح خاص لـ«الوطن»: إن «هذه المقامات ليست آنية بل حالة وهي مقامات التوحيدية ومقامات الروح، لأنها تبدأ من بناء شكلي مسبق في الذاكرة وعليها نشدت باللون كثيراً من المعطيات، وهذه المعطيات هي الحركة والحياة والنافذة والطريق وما شابه ذلك، فالمقامات تبين لنا أنه لا حياة من دون حب وفي الحقيقة كل أسود يحتاج إلى أبيض وكل أبيض يحتاج إلى أسود، ونحن في سورية تعودنا ذلك ودائماً نخرج من هذه الأزمات، وأعمالي هي ترجمة لمجموعة سوالف حقيقة أكدتها من خلال عناوين مختلفة ومنها مقامات الروح والنافذة والجسد والوجه كلها تجتمع في غاية الجمال ولكن مهما جملتها تبقى الحياة أجمل».

وعن استخدامه اللون الأسود بين الرحبي أن: «الأسود يمثل جسد الفنان وإمكانياته وأميل إلى الخط العريض منه وهو حالة تعبير وأحياناً تعجم بالألوان وتنغمس بها ولكن يبقى الأسود حالة فرح بعكس ما يقولون، ففي أوروبا كثيراً ما ترتدي الفتاة في عرسها فستاناً أسود لأن السواد يشكل حالة للبدء في صيرورة الحياة والانتماء إليها بكل ألوانها، ورسالتي موجهة إلى كل إنسان بألا يراني فقط بعين واحدة بل يراني بعينين اثنتين ومن ثم لأؤكد الكثير من الحركات الإنسانية والدرامية التي تكلل دائماً بالحالة التي أقيم بها الزمان والمكان الذي أرسم به».

أزمنة مختلفة في اللوحة

وبدوره قال الفنان بديع جحجاح إن: «افتتاح الموسم الجديد لصالة (ألف نون) يعتمد على نوع من المفارقات والجدليات، وعندما نقول الجدل بين الحب والحرب نتحدث هنا عن الراء التي أسقطت من كلمة الحرب ليبقى الحب، والفنان الرحبي هو شريك حقيقي للفن التشكيلي عبر قيادته وشراكته في اتحاد الفنانين التشكيليين وتأثيره في جملة قوانين مهمة، إضافة إلى امتلاكه منهجاً خاصاً به هو عبارة عن الخط الأسود الذي يمثل الأمل والانتصار، فالحب اليوم يمتد كجسر من دمشق إلى اللاذقية ونهر الفرات في دير الزور على ضفاف ممتلئة باللون والشغف منتظرين النصر الكبير لسورية».

وأضاف جحجاح إن: «هذه العلاقة المهمة في احتضان اللون الأسود لمساحات ملونة فيها قصص وسرديات وحالات شعرية مؤنثة يتميز بها الرحبي حيث نرى في اللوحة أزمنة مختلفة وقد نلمح بعض القضايا لامرأة تطمح إلى السلام والأمن والحب وكل هذه القصص النثرية والشعر المسفوح على جبهات الحرب يصوغه الفنان الرحبي بمساحات من حقول أمل وقمح».

أما عن جديد صالة (ألف نون) فيبين جحجاح أن: «هناك خطة قوية لها علاقة بإطلاق الرمز الجديد تحت اسم المحبة وهو مشتق من المنظومة المسيحية المشرقية التي لها تأثير كبير في ثقافتنا الإنسانية».

أكثر نضجاً وغنى

ورأى الفنان محمد غنوم أن: «المعرض مهم في المسيرة الفنية للفنان الرحبي حيث نعلم جميعاً أنه من الفنانين المعطائين والمنتجين بشكل جيد، ولكن اليوم يحقق نقلة نوعية، وخاصة مع هذا العنوان الذي يحمل نوعاً من التضاد بين الحرب والحب وتجلى ذلك في ألوان الرحبي، كما نلاحظ أن الشخوص التي رسمها معبرة بشكل عميق التعبير عن هذا العنوان الذي يحمله المعرض، وحقيقة أهنئ الفنان الرحبي على هذه النقلة وعلى هذا الإنتاج المهم وخاصة في هذا الوقت وسورية تختتم أزمتها التي مرت عليها، ونشاهد أيضاً أن تكوين اللوحة أصبح أكثر نضجاً وغنى عما كان في السابق بسبب المتانة في توزيع الشخوص والمساحات، وهذا التناقض ما بين الحار والبارد يعكس أيضاً العنوان العريض لهذا المعرض مقامات في الحب والحرب».

بانوراما فنية تشكيلية

ومن جانبه أكد رئيس فرع دمشق لاتحاد الفنانين التشكيليين الدكتور نبيل رزوق أن: «الرحبي فنان يبحث دائماً في الأعمال الفنية، وأسلوبه الفني متطور دائماً لأنه يعتمد على البساطة والواقعية التعبيرية إضافة إلى غنى الألوان في أعماله، ونلاحظ أن المرأة هي العنصر الرئيسي وتكاد تكون بطلة أعماله الفنية إن كانت بالشكل الكامل أم من خلال البورتريه، وأيضاً هناك وجود للعمارة القديمة ودمشق القديمة، إضافة إلى الشخوص المعبرة والألوان كما يعتمد على الألوان الحارة واللون الأحمر الذي سيطر على أعماله الفنية، وأرى أن هذا المعرض بانوراما فنية تشكيلية متميزة، والرحبي فنان له تاريخ وماض في الحركة التشكيلية وحاصل على عدة جوائز وكنت في أحد التجمعات العربية الفنية في مسقط- عمان، حيث قدم أعمالاً فنية متميزة وكان لي الشرف أن أكون ضمن لجنة التحكيم حيث حصل الرحبي على الجائزة الأولى بفن التصوير على مستوى الوطن العربي وكانت أعماله لافتة للنظر وهو في حالة بحث دائم ولا يقف عند نقطة معينة».

خلاصة تجربة

وعن رأيه في المعرض قال الفنان جمعة نزهان إن: «الرحبي من جيل سبقنا ونحن نحتذي به ونتأثر ونتابع عمله كمبدع، والمعرض هو خلاصة تجربة، والعنوان اليوم مهم لأنه يبين للجميع حالة الحب التي انتصرت على الحرب، وبشكل عام فإن الرحبي يعمل على موضوع التضاد والرسم باللون الأسود الذي يعبر به عن ملامح الموضوع أو الأشخاص والبيت والشجرة التي يرسمها، وتأتي الألوان التي توضح هذه الأشكال، والمقامات هي مقام الأسرة والشارع والبيت وبعدها تأتي التفاصيل الثانية التي يضع عليها المجهر أو التقريب وتتضح أشكالاً أخرى حاملة دلالات ومعاني أبعد للأشياء ويمكن أن نرى ذلك من وجه امرأة تحمل الكثير من الحب وتعابير الاستغراب والدهشة والحزن، وهناك الكثير من الرموز التي تساعد العمل عند أنور على الوضوح والشخصية والبيئة والفترة الطويلة من القراءة والتأمل بالطبيعة والمكان الذي كان يعيش به وذكرياته وأحياناً يستوردها من الحاضر أو من حوله».

يذكر أن الفنان التشكيلي أنور الرحبي من مواليد دير الزور ١٩٥٧ درس الفن دراسة خاصة وشغل منصب أمين السر العام لاتحاد الفنانين التشكيليين في سورية وحصل على العديد من الجوائز في سورية وفي العالم منها الجائزة الأولى بينالي مسقط وميدالية كارل ماركس في ألمانيا كما شارك في معارض داخل وخارج سورية وأعماله مقتناة من وزارات الثقافة والخارجية والسياحة.

هكذا تولد الأعمال العظيمة نجيب محفوظ.. والقصة القصيرة

الإبداع من المعاناة للوصول إلى العالمية حكاية ومضموناً

د. رحيم هادي الشمخي

نغوص في بحار المبدعين، تبهرنا كلمة، يشجعنا لحن، تطربنا أغنية، نذوب من أبطال فيلم، نتفاعل، نتوحد، يمس إبداعهم أوتار القلب بصدق، يرتجمون أحاسيسنا مشاعرنا، ينقلون ما يدور بعقولنا، فتتحول أعمالهم إلى مرآة تعكس أفكارنا، وأخلاقنا، وآلامنا، وأفراحنا، فنتعرف على نقاط ضعفنا وقوتنا، جمالنا وقبحنا، تهز فينا ثمار الخير، تعرينا لنقلع بذور الشر عن أنفسنا، ويمتزج معهم الحلم بالواقع، الحقيقة بالخيال، في عالم ثري ساحر، يأخذنا فنأبى الرحيل عنه، يدعونا فنلبي النداء، وكأننا على ميعاد معهم، ننتظرهم ليكشفوا لنا عن حقيقة نعيشها، ولأنهم قريبون منا، تؤرقهم همومنا، كأن علينا أيضاً أن نقترب منهم، نتعرف على لحظات إبداعهم، طقوسها، ومعاناتها، نشاركهم عالمهم كما شاركونا دائماً عالمنا.

عالم نجيب محفوظ ثري، ساحر، مبهر، تجذبك فيه الكلمة، يمتعك الحوار، ويبهرك الوصف، يأخذك الكاتب العملاق في عالمه في القصة القصيرة أو غيرها من فنون الأدب، لتعود مفتوناً بعقل منظم إلى أبعد الحدود، والمدهش أن وراء هذا الكاتب الكبير أيضاً حياة منظمة بدقة غير عادية وهو الذي يقول: «إنني أكتب عادة عند الغروب، ولا أذكر أنني كتبت أكثر من ثلاث ساعات، وفي المتوسط لمدة ساعتين، أشرب في اليوم الواحد خمسة فناجين قهوة، وأسهر حتى الثانية عشرة ليلاً، وأكتفي بخمس ساعات نوم، كما أنني أعمل في كل سنة بدءاً من أول العام حتى شهر حزيران فقط، بسبب مرض الحساسية».

نجيب محفوظ منذ أن خرجت له أول قصة طبعها والمكتبة العربية والأدب العربي الحديث كسب رصيداً جديداً.

أضيف إلى رصيد الإبداع الحقيقي الواقعي الخارج من رحم الأمة ومن نبع فيض معاناتها، ومع الإرهاصات والإبداعات المتتالية التي سبقت، ومن ثم تلك الثلاثية الخالدة، بل إن نجيب محفوظ أكثر من يستحق الجوائز العالمية الكبرى في الآداب وعلى رأسها جائزة نوبل بالطبع.

لذلك، وعلى الرغم من أن شهرة نجيب محفوظ تستمد عناصرها من كونه كاتباً روائياً قبل كل شيء، فإنه بدأ نشاطه الأدبي بكتابة القصص القصيرة والمقالات، وهو لا يزال طالباً في سنوات الجامعة الأولى، سنة ١٩٣٠ وما بعدها، وفي ذلك الوقت، كانت القصة القصيرة أكثر القوالب الأدبية شعبية في مصر، ولم يكن من المستغرب أن يتجه الكاتب الناشئ بمحاولاته الأولى إلى هذا الميدان، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار صعوبة النشر آنذاك.

وعندما حلت سنة ١٩٤٤ وهي السنة التي نشرت فيها ثالث روايات نجيب محفوظ، وكانت جميعها تاريخية، كان قد نشر أكثر من سبعين قصة قصيرة غطت موضوعات مختلفة كان معظمها معاصراً، ومع ذلك فقد ألف النقاد أن يسموا هذه المرحلة من حياة نجيب محفوظ «المرحلة التاريخية» لنشره تلك الروايات الثلاث. ولعل السبب في ذلك هو أن كل القصص القصيرة التي كتبها نجيب محفوظ حتى ذلك التاريخ لم تكن قد نشرت إلا في الصحف والمجلات كما سنرى- ولو أنها جمعت في كتب ذلك الوقت، لخرجت في ثلاث أو أربع مجموعات قصصية، لو تردد النقاد في نعت هذه الفترة من حياة الأديب الكبير بالمرحلة التاريخية.

وتحتوي مجموعته الأولى «همس الجنون» على ٢٨ قصة (أو نحو ثلث ما كان قد نشر في قبل في دوريات) يمكن مناقشتها مناقشة ملائمة إذا صنفناها في طائفتين:

أ- الطائفة الأولى: والأكبر تتألف من قصص تظهر بوضوح تأثير (المدرسة الحديثة) التي برزت للوجود في أواخر العقد الثاني، وترعرعت في العقد الثالث لهذا القرن، والتي اهتم كتابها على ما هو معروف، بإبراز الشخصية المصرية في إطار أدب مصري أكثر واقعية وأشد التصاقاً بالمجتمع مما كان يكتب في ذلك الوقت- وهكذا وضح في إنتاج هذه المدرسة اللون المحلي من جهة، (وهو يبدو واضحاً بصفة خاصة في قصص أو لوحات محمود تيمور، كالشيخ جمعة، وعم متولي.. إلخ)، ومشكلات الأسرة المصرية من جهة أخرى (كتعدد الزوجات، وبيت الطاعة، والخمر، والخيانة الزوجية، وزواج الطاعنين في السن بفتيات صغيرات.. إلخ) وتبدو هذه المشكلات وأمثالها بوضوح في إنتاج محمود طاهر لاشين بشكل خاص.

وكما هو المنتظر من كتاب القصة القصيرة في هذه المرحلة المبكرة من تاريخها في مصر، فقد اعتمد الكتاب، عادة، على المفاجآت أو المصادفات أو المفارقات لكي يضمنوا لقصصهم نهايات مثيرة أو غير متوقعة.

ب- الطائفة الثانية من القصص القصيرة في «همس الجنون» وضوح إيمان نجيب محفوظ المتصاعد بالاشتراكية على الرغم من أنه لم يكن قد اكتشف الطريق الأمثل للتعبير عن آرائه هذه في قالب أدبي، وعلى الرغم من أن آراءه الاشتراكية لم تكن قد تبلورت بعد. ففي قصة «الجوع» مثلاً، يبدو أنه يرى أن من الممكن تحقيق الإصلاح الاجتماعي بواسطة الطبقة الرأسمالية، إذا كانت هذه الطبقة مستعدة لبذل الجهد. إذ يفقد عامل في أحد المصانع ذراعه في حادثة بالمصنع ويقرر الانتحار حين يجد أنه لن يستطيع أن يعول أسرته، وفي اللحظة التي يقدم فيها على الانتحار «يتصادف» مرور ابن صاحب المصنع الذي يمنحه بعض المال ويعده بعمل جديد في المصنع، ويتأمل الابن للحظة في المال الذي ينفقه كل ليلة على مائدة القمار، والذي يكفي لإعالة أسر كثيرة كهذه.

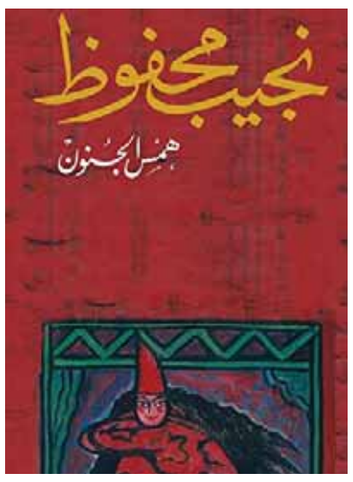

ومن جهة أخرى فإن مغزى قصة «الورقة المهلكة» هي أن أي مساعدة تمنحها الطبقة الأرستقراطية للفقراء لن تجر وراءها الخراب، إذ يعطي رجل غني عشرة جنيهات لمغن فقير، فيتغير مجرى حياة المغني، ويصبح بالتدريج قاطع طريق ثم يشنق في النهاية، لارتكابه جريمة قتل. ويقود البحث عن أتباعه رجال البوليس إلى هدم الحي الذي يؤوي زملاءه القدامى.

وبجانب موقف نجيب محفوظ غير المتناسق في هذه القصص، فمن الواضح أنه هنا يتخذ موقفاً محدداً، ويحاول أن يصدر الأحكام ويقرر الحلول للمشاكل، على حين أنه يكتفي في أعماله اللاحقة بوصف الأوضاع الاجتماعية المروعة بطريقة محايدة ومن دون أي تعليق.

فقد استمر يكتب بمعدل واحد تقريباً من أواسط الثلاثينيات حتى سنة ١٩٤٢.

ثم بدأ ظهور القصص يقل بشكل واضح لدرجة أنه لم ينشر في الفترة من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٦٠ سوى عدد محدود ومتناثر من القصص لا يكاد يتجاوز أصابع اليد الواحدة. وواضح أن السبب في ذلك هو انصراف الأديب الكبير في كتابة العديد من رواياته ونشرها. ومنذ سنة ١٩٦٠ تقريباً يبدأ اهتمام نجيب محفوظ بالقصة القصيرة مرة أخرى، فنجده ينشر في أوائل الستينيات عدداً من القصص في جريدة الأهرام ثم يجمعها بعد ذلك وينشرها بعنوان «دنيا الله» سنة ١٩٦٣.

وتستغرق الفترة التي قل- أو توقف- فيها نشاط نجيب محفوظ في ميدان الأقصوصة زهاء عشرين عاماً (١٩٤٢- ١٩٦٠)، وهي فترة طويلة استطاع خلالها أديبنا أن يوطد مكانته كأهم كاتب روائي في مصر وربما في العالم العربي كله، كما تمكن أدباء من أمثال يحيى حقي ومحمود البدوي وصلاح دهني ويوسف الشاروني ويوسف إدريس أن يرتفعوا بمستوى القصة القصيرة في الأربعينيات والخمسينيات ارتفاعاً ملحوظاً ولم يكن غريباً – لكل ذلك- أن تختلف قصص «دنيا الله» عن قصص «همس الجنون» اختلافاً بيناً. فعلى حين تقرأ قصص المجموعة الأولى بسرعة وتنسى بسرعة، ويبدو الكتاب وكأنه مجموعة من التفاصيل غير المهمة، فإن قصص «دنيا الله» تصور – بأسلوب واقعي ناضج- مواقف غنية زاخرة بالمعاني والمشاعر، وهي لذلك أكثر إقناعاً وأكثر إمتاعاً وأزهى حضوراً في ذهن القارئ.

لقد استطاع نجيب محفوظ هنا أن يجسم المضامين الاجتماعية والميتافيزية لقصصه في أشخاص وأحداث لها علاقة حقيقية بالحياة. حتى القصص الرمزية، والرمز بعد جديد لم يكن موجوداً في «همس الجنون»، فإن لها معنى حقيقياً إذا فهمت على المستوى الواقعي، ولكل هذا تدفع هذه القصص القارئ إلى أن يتناولها بطريقة جادة وأن يتأمل مغزاها وما تريد أن تقول. إضافة إلى ذلك فإن أفكار نجيب محفوظ هنا دائماً واضحة ومتسقة حتى يستطيع القارئ أن يدرك بسهولة وجهة نظره في الحياة في تلك الفترة.

ولم ينشر نجيب محفوظ أي مجموعات قصصية إلا بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، التي أثرت تأثيراً بالغاً في كتابته القصصية اللاحقة، هذا هو نجيب محفوظ الخالد في التاريخ أبداً.